عاصفة القدر[1]

على شاطىء النِّيل في إقليم (الغربيَّة) من هذا البرِّ قريةٌ ليس فيها من جبلٍ ، ولكن روح الجبل في رجلٍ من أهلها ، فإذا اعتبرته بالرِّجال قوَّةً ، وضعفاً ؛ رأيته ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله ، وهو بطل القرية ، ولواءُ كلِّ معركةٍ تنشب فيها بين فتيانها ، وبين فتيان القرى المتناثرة حولها ، ولا تزال هذه المعارك بين شبَّان القرى كأنَّها من حركة الدَّم الحرِّ الفاتح المتوارث فيهم من أجيالٍ بعيدةٍ ، ينحدر من جيلٍ إلى جيلٍ ، وفيه تلك القطرات الثَّائرة ؛ الَّتي كانت تغلي ، وتفور ، وهي كعهدها لا تزال تفور ، وتغلي ، ويلقِّبون هذا الرَّجل الشَّديد (بالجمل) لما يعرفونه من جسامة خلقه ، وصبره على الشَّدائد ، واحتماله فيها ، وكونه مع ذلك سَلِس القيادة ، سليم الفطرة ، رقيق الطَّبع ؛ على أنَّه أبطش ذي يدين ؛ إن ثار ثائره ، وله إيمانٌ قويٌّ ، يستمسك به ، كما يتماسك الجبل بعنصره الصَّخريِّ ، إلا أنَّه يخلطه ببعض الخرافات ، إذ لا بدَّ له من بعض الجرائم الشَّريفة التي يحمل عليها فرط القوَّة والمروءة في مثله مع مثله .

وليس في تلك القرية من بحرٍ ، غير أنَّ فيها شابّاً أعنف طيشاً ، وعتوّاً من الموجة على بحرها في يوم ريحٍ عاتيةٍ ، حلو المنظر ، لكنَّه مرُّ الطَّعم ، صافي الوجه لكن له غوراً بعيداً من الدَّهاء ، والخبث ، وهو ابن عمدة البلد ، وواحد أبويه ، والوارث من دنياهما العريضة ، يبسط يديه على خمسمئة فدان ، وقد أفسدته النِّعمة ، وأهانته عزَّتُه على أهله ؛ ولو اجتمعت حسنتان ، لتخرج منهما سيِّئةٌ من السَّيِّئات بأسلوبٍ من الأساليب ، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطَّيِّبين ، تعلَّم وهو يعرف : أنَّه لا حاجة به إلى العلم ، فجعلت تلفظه المدارس واحدةً بعد واحدةٍ ، كأنَّه نواةُ ثمرةٍ إنسانيَّةٍ ، فإذا قيل له في ذلك ؛ قال : إنَّ خمسمئة فدَّان لا تسعها مدرسةٌ . وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذي استعصى عليه في مصر ، فأرهف ذلك العلم . خياله ، وصقل حسَّه ، ورجع من باريس رقيق

---

(١) أنشأها للمقتطف سنة (١٩٢٥) . (س) .

الحاشية ، خشناً ، متطرفاً ، لا يصلح شرقيّاً ، ولاغربيّاً !

وليس في تلك القرية غابةٌ ، لكن فيها عذراء تلتفُّ من جسمها في رداء الجمال الطَّبيعي الرَّائع ، ولها نفسٌ أشدُّ وعورةً ممَّا تنطوي الغابة عليه ؛ ففي ظاهرها الرَّونقُ الذي يفتن ، فيجذب إليها ، وفي باطنها القوَّة الَّتي تتلوَّى ، فتدفع عنها ؛ وهي ابنة عمٍّ (الجمل) واسمها (خضراء) ، وكأنَّ فيها زهوَ خضرة الرَّبيع ، ولم تكن تعشق إلا القوَّة ، فما يزين لها من الرِّجال إلا ابنُ عمِّها ، وهي شديدة الإعجاب به ؛ وإنَّما إعجاب المرأة برجلٍ من الرجال مفتاحٌ من مفاتيح قلبها .

وكانت (خضراء) جاهلةً كنساء القرى ؛ بَيدَ أنَّها تلميذةٌ بارعةٌ للطَّبيعة ؛ الَّتي نشأت فيها ، وزاولت أعمالها ؛ فهي بذلك أقوى نفساً ، وأشدُّ مراساً من الفتيات المتعلِّمات ؛ إذا اتَّخذت شكلاً ثابتاً من أشكال الحياة ، الحياة هي صَنعتها هذه الصَّنعة ، أو أقامتها على هذه الهيئة ، على حين أنَّ المتعلِّمات يُمضين أيَّام النَّشأة ، وسنَّ الغريزة في التَّلقِّي عن الألفاظ ، والكتب ، وفي توهُّم الصُّور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها ، وفي توقِّي أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها ؛ فيؤول ذلك منهنَّ إلى قوَّةٍ في التَّخيُّل ؛ قلَّما ترضي الحقيقة الإنسانيَّة المؤلمة حين تصادمها يوماً ما ؛ وتتمُّ الواحدة منهنَّ ، ولكن باعتبار أنَّها تمَّت تلميذةً للمدرسة لا امرأةً للحياة بما فيها ممَّا يعجب ، وما لا يعجب .

وكانت (خضراء) أشبه بدورة النَّهار ؛ تفتح أجفانها على أشعَّة الفجر كلَّ يومٍ ، ولا تزال نهارها في دأبٍ ، وعملٍ ، فنفى ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السُّكون من الخمول ، والميل إلى العبث ، والدُّعابة ، وحصلت لها من الحياة حقيقةٌ عرفت منها : أنَّ المرأة عاملٌ من أكبر العوامل في النِّظام الإنسانيِّ ؛ عليه أن يصبر على الكدِّ ، والتَّعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية ، لا بطبيعته المزوَّرة المصنوعة ، ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ، ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب السَّاعات لعقرب الثَّواني في الرُّقعة الَّتي تجمعُهما ؛ فهذا الصَّغير لا يبرح يضطرب في « دائرته الضَّيِّقة » يهتزُّ من جزءٍ إلى جزءٍ ، حتَّى إذا أتمَّ الدَّقيقة في ستين هزَّةٍ كاملةٍ ذهب الأوَّل بفضلها كلِّها ، وخطا بها خطوةً واحدةً ، ثمَّ يعود المستضْعَف المسكين إلى مثل عمله ، ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هو أقلُّهما قيمةً ، وظهوراً ؛ ولكن هذا الضَّعيف المغبون لم ينلهُ ما ناله إلا من كونه هو وحده الذي

بُني في هذا النِّظام على فضيلة الصَّبر ، والدِّقَّة ، ليكون أساساً للآخر ، فعرفت (خضراءُ) كيف تقيِّد طبيعتها من تلقاءِ نفسها ، وتُقرُّها على الصَّبر ، والرِّضا ، والسُّكون إلى حظِّها الطَّبيعيِّ ، والاغتباط به ؛ إذ كان فضل الرَّجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً ، أو أسبابَ فضلٍ ، بل في كونها هي أكثر منه حبّاً ، وتسامحاً ، وصبراً ، وإيثاراً ، ففضائلُها الحقيقيَّة هي التي جعلته الأفضل ، كما تجوع الأمُّ لتطعم ابنها ! .

* * *

ورآها (ابن العمدة) ولمَّا تمضِ أيَّامٌ على رجوعه من أوربة ، وقد لبث هناك بضع سنين ، وكان عهدُه بالفتاة صغيرةً ، فوثبت إلى نفسه في وثبةٍ واحدةٍ ، ورأى شباباً ، وجمالاً ، وروعةً زيَّنتها في قلبه ، وسوَّلت له مطمعاً من المطامع ، وجعلته يرى ما يرى بمعنى ، ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره .

وكانت حين رآها واقفةً على النِّيل تملأ جرَّتها مع نساءٍ من قومها وهنَّ يتعابثن ويتضاحكن ، وكأنَّ لخصب الأرض في أرواحهنَّ أثراً بادياً ، فإذا ما أقبلن على النَّهر لشأنٍ من شؤونهنَّ تندَّتْ روح الماء على ذلك الأثر ، فاهتزَّ ، واهتزَّت المرأة به ، فإن كانت ذات مسحةٍ من جمالٍ ، رأيت لها رفيفاً[1] كرفيف الزَّهرة حين يمسحها النَّدى ، وذهبت تتموَّج في جسمها ، وقد حسرت عن ذراعيها ، ولمس الماء دمها الجذَّاب ، فأرسل فيه تيَّاراً من العافية ، والنَّشاط يتَّصل منها بقلب من يراها ، إن هو كان شاعراً يحسُّ ؛ فإن كانت روح الرَّجلِ ظمأى ، ورأى المرأة على هذه الهيئة ، فما أحسبُه إلا يشرب منها بعينيه شرباً يجد له في قلبه نشوةً كنشوة الخمر ؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى ، فزيَّنها له الخبث الذي فيه أضعاف ما زيَّنها له الجمالُ الَّذي فيها ، وقذفها القدر إلى قلبه ، ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمةٍ ؛ فوقف يتأمَّلها بعينِ أحدَّ من آلة التَّصوير ، لا تفوتها حركةٌ ، وسلَّط عليها فكره ، وذوقه ، وأيقظ لها في نفسه المعاني الرَّاقدة ، فنصبت في قلبه عدَّةً من تماثيل الجمال ، تجسَّدت في كلِّ واحدٍ منها على شكلٍ كأنَّما أُفرغت فيه إفراغاً .

* * *

(١) « رفيفاً » : بريقاً .

وكانت نفس ابن العمدة من النُّفوس الخياليَّة المتوثِّبة ، إذا قامت من نشأتها على أن تطلب فتجاب ، وتأمر فتطاع ، وتشتهي فتجد ، وكأنَّه ما خُلق إلا ليستعبد قلبيْ والديه ، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التَّربية إلا أنَّ للحكومة مدارس للتَّربية ، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدُّنيا إلا أنَّها الحاجة إلى المال ، ومنقطعين من النَّسل إلا منه ، فكأنَّه لم يولد لهما ، بل قد وُلدا له . . . فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه ، وبذلك أسرفا له في فضائل الرِّقَّة ، والحنان ، والإشفاق ، وما إليها ، وهي في نفسها فضائل ، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تُنشئ في أولادهم إلا ما يكون من أضدادها ، كالشَّجر تفرط عليه الرِّيَّ ، فلا يحدث فيه إلا اليبس والذُّوِيُّ ، وإنَّما أنت تسقيه الموت ما دمت ترويه بمقدارٍ من هواك ، لا بمقدارِ حاجتهِ .

ونشأ الفتى في أحوالٍ اجتماعيَّةٍ مختلفةٍ جعلت من أخصِّ طباعِه تمويه نفسِه على النَّاس ، والتَّباهي بالغِنى ، والتَّنبُّل بالأصدقاءِ ، والحاشية من وزرائه ، وعمَّالِه ، والتَّهيُّؤ بالثِّياب ، والأزياءِ ، فانصرف باطنهُ إلى تجميل ظاهرِه ، وردَّ ظاهرُه على باطنه بالشَّهوات ، والدَّنايا ، وأعانه على ذلك أنَّه جميلٌ فاتنٌ كأنَّما خلقت صورته « للصَّفحة الحسَّاسة » من قلوب النِّساءِ ؛ وذلك ملكٌ عظيمٌ ، لم يكن أبوه الرَّجل الطَّيب منه إلا كما يكون وزير ماليَّة الدولة .

ولمَّا أُرسل إلى باريس ؛ وقع منها في بلهٍ عجيبٍ ، كأنَّه خيال متخيِّلٍ لا يؤمُّهُ الرَّجل في الدُّنيا من كاملٍ ، أو ناقصٍ ، وعالمٍ ، أو جاهلٍ ، وشريفٍ ، أو ساقطٍ إلا رأى فيه ما يملأ كلَّ مداخل نفسه ومخارجها ، فلو قامت مدينةٌ من أحلام النُّفوس الإنسانيَّة في خيرها ، وشرِّها ، وطُهرها ، وفجورها ، واختلالها ، ونظامها ؛ لكانت هي باريس ، وانقطع الشابُّ هناك إلى نفسِه ، وإلى صور نفسِه من أصدقاء السُّوء ، فلا أهل ؛ فيُلزموه الفضيلة ، ولا إخوة ، فيردُّوه إلى الرَّأي ، ولا خُلقٌ متينٌ ، فيعتصم به ، ولا نفسٌ مرَّةٌ ؛ فيفيءَ إليها ، ولا فقرٌ . . . فيحدَّ له حدوداً في الشَّهوات يقف عندها ؛ وما هو إلا خيالٌ متوقِّدٌ ، ومزاجٌ مشبوبٌ ، وتربيةٌ مدلَّلةٌ ، وطبعٌ جريءٌ ، ومالٌ يمرُّ في إنفاقه ، ومن ورائه أبٌ غنيٌّ مخدوعٌ ، كأنَّه في يد ابنه كرة الخيط : كلَّما جذب منها ، مدَّت له مدّاً ، ثمَّ ما هنالك من فنون الجمال ، ومُتع اللَّذَّات ، وأسباب اللَّهو ، ممَّا يتناهى إليه فساد الفاسد ، وما هو

في ذاته كأنَّه عقوبةٌ مستأصلةٌ للأخلاق الطَّيِّبة ؛ فكان الشَّيطان الباريسيُّ من هذا المسكين في سمعه ، وبصره ، ورجله ، ويده ، يوجِّهه حيث شاء ، وبالجملة فقد ذهب ليدرس ، فدرس ما شاء ، ورجع أستاذاً في كلِّ علوم النَّفس المختلَّة الطَّائشة وفنونها ، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوى بها لسانُه من علومٍ ، وأقاويل ليس فيها إلا ما يدلُّ الحاذق على أنَّ هذا الشابَّ لم يفلح قطُّ في مدرسةٍ .

فلمَّا وقعت (خضراء) منه ذلك الموقع ، وأخذت مأخذها في نفسه ؛ اعتدَّها نزوةً من نزواته ، فما بمثله أن يحبَّ مثلها ، ولا هي كفايته في شيءٍ إلا أن تكون لهوَ ساعةٍ من ساعاته ، أو حادثةً جرى فيها حالٌ من أحواله الغراميَّة ، وحسِبها امرأةً ليس لقلبها أبوابٌ تمتنع على مثله ، فقدَّر : أنَّ غناه ، وفقرها يقتلعان باباً ، وعلمه ، وجهلها يحطِّمان باباً آخر ، وجماله وحدَهُ يَضع ما بقي من الأقفال عما بقي من الأبواب ! وكان يحسب : أنَّ جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها ؛ فكلُّ مَنْ ملك ثمنها فليس بينه وبينها إلا هذا الثَّمن ، ولكنَّ الأيَّام جعلت تأتي ، وتمرُّ وهو لا يزيد على أن يعرض لها ، وهي ترميه من صدرها كلَّ يومٍ بداعيةٍ من دواعي الهوى ، وكان لا يجد بنفسه قوَّةً أن يزيدها على النَّظر شيئاً ، وترك لوجهه ، وثيابه ، ونظراته ، وغناه أن تصل بين قلبه وقلبها بسببٍ ، فلم ينلْ طائلاً ، وتمادى في حبِّه ، واستولت عليه فكرةٌ غمرَتْه بهذه المرأة ؛ أمَّا هي ، فأشعرتها غريزتها بما في قلبه منها ، وكانت مُسمَّاةً لابن عمِّها[1] فكانت تتحاشى هذا الشابَّ ، وتحذره حذراً شديداً ، وتتوهَّم أنَّ النَّاس يحصون عليها النَّظرة ، والالتفاتة ، ويحصون عليه من مثلهما ، ووقع في نفسها : أنَّ لهذا الرجل شأناً غير شأن الرِّجال الآخرين ، فهم لا يستطيعون معها حيلةً ، وهو يستطيعها بغناه ، ومنزلته .

وكان للرَّجل خادمٌ داهيةٌ ، قد تخرَّج في مجالس القضاء . . . من كثرة ما حُكم عليه من تزويرٍ ، واحتيالٍ ، وغشٍّ ، وادِّعاءٍ ، وإنكارٍ ، ونحوها ، وقد استخلصه لنفسه ، واتَّخذه مؤانساً ورفيقاً ، وجعله دسيساً[2] إلى شهواته السَّافلة ، وكان يسمِّيه فيما بينهما (إبليس) فلمَّا أراد أن يرميها به ؛ قال : يا سيِّدي ، هذه قضيَّة احتيالٍ عليها ، فإذا دخل ابن عمِّها خصماً في الدَّعوى كانت قضيَّة احتيالٍ على

(١) معدَّة لخطبته ، أو كما يقولون : قُرئت مع أهلها الفاتحة . (ع) .
(٢) جاسوساً ، ؛ وصاحب سِرٍّ . (ع) .

عمري أنا ! قال : ويحك أيُّها الأبله ! فأين دهاؤك ومكرك ؟ وإنَّما أرسلك إلى امرأةٍ فقيرةٍ عيشُها كفافُها ، وأنت تعِدها ، وتمنِّيها ، وتبذل عنِّي ما شئت ، ومتى أطمعتها في المال ؛ فإنَّ هذا المال سيوجد ما يوجده في كلِّ مكانٍ ، فيَشري ما لا يُشرى ، ويبيع ما لا يُباع !

قال (إبليس) : نعم يا سيِّدي ! وكذلك هو ، ولكن خوف العار يطرد حبَّ المال ! قال : فأنت إذاً لا تقبل ؟ قال : ولا أرفض .

قال الشَّابُّ : قاتلك اللهَ لقد فهمت ! سأشتريها منك بثمنين أحدهما لك ، والآخر لها ؛ ولكن أخبرني كيف تصنع معها ، ومن أيت تبلغ إليها ؟

قال (إبليس) : لما كنت في السِّجن عرفت لصّاً فاتكاً ، أعيَا قومَه خبثاً ، وشَرّاً ؛ وهذا السِّجن يحسبُه النَّاس عقاباً ، وردعاً ، ومنهاةً عن الإثم ، على أنَّه المدرسة ؛ الَّتي تنشئها الحكومة بنفسها ؛ لتلقِّي علوم الجريمة عن كبار أساتذتها ؛ إذ لا يمكن أن يجتمع كبارهم في مكانٍ من الأرض إلا فيه ، فالسِّجن طريقةٌ من طرق حلِّ المشكلة الإنسانيَّة ، ولكنه هو نفسُه يُحدِث للإنسانيَّة مشكلةً لا تُحلُّ !

قال الفتى : ويحكَ أين يُذهب بك ؟ إنَّما أرسلك إلى المرأة لا إلى السِّجن ! قال : ترسلني أنت إليها ولكن لا يعلم إلا الله إلا أين يرسلني ابن عمِّها : إلى السِّجن ، أم إلى المستشفى . . . ! فاسمع يا سيِّدي ! كان من نصائح أستاذي في ذلك السِّجن : أنَّ الحيلةَ على رجلٍ ينبغي لإحكامها أن يكون في بعض أسبابها امرأةٌ ، والكيد لامرأةٍ يجب أن يكون في بعض وسائله رجلٌ . . . صَهْ ! انظر ! انظر ! فالتفت الشَّابُّ ، فإذا (الجمل) مقبلٌ يتكفَّأ في مشيته ، وكان غليظاً ، فإذا خطا شدَّ على الأرض بقدميه ، وتكدَّس بعضه في بعض ؛ وكان منطلقاً وقتئذٍ إلى بعض مذاهبه ، فلمَّا حاذاهما ، قال : السَّلام عليكم ! فردَّا جميعاً ، ورمى ابن العمدة بنظرةٍ ثمَّ مضى لوجهه ، فلم يجاوز غير بعيدٍ حتَّى بلغه صوت الشَّابِّ يناديه : يا فلان ! فانكفأ إليه .

فقال له الشَّابُّ : لقد بعُدَ عهدك بالقوَّة على ما أرى .

قال : أما بلغك : أنَّ فلاناً في هذه القرية التي تجاورنا سيقترن بزوجته بعد أيَّامٍ ، وأنت تعرف الموقعة التي كانت بين بلدنا ، وتلك البلدة يوم عرْس فلانٍ في السَّنة الماضية ، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا ، وحطَّموا فيهم تلك

الحُطَمَة[١] الشَّديدة ولولا أنت أدركتهم ، ورميتهم بنفسك حتى دفعتهم عن النَّاس ، وسقتهم أمامك سَوقَ النِّعاج ؛ لكانت بلدنا اليوم أذلَّ البلاد ، ولاستطالوا علينا بأنَّهم غلبونا ؛ ولقد حدَّثني هذا كيف تلقَّيت بهراوتك يومئذٍ خمساً وعشرين هراوة ، فأطرتها كلَّها في جولتك ، وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك ، وتكلَّبوا عليك ، فأنت فخر بلدنا ، وصاحب زعامتها ، وما أرى لك إلا أن تنتهز هذه الفرصة ، وتسرع الوثبة إليهم برجالك ، فتجزيهم في أرضهم صنيعاً بصنيعٍ مثله ! .

فهزَّ الجمل كتفيه العريضتين، وقال: بل سأنتظرهم في يوم عرسي بابنة عمِّي. . !

قال الشَّابُّ : أبلغت ما أرى ؟ فإنَّك لتخافهم !

قال : لا أخافهم ، ولكن أخاف الحكومة أن تؤخِّر يوم زواجي . . . سنة ، أو سنتين !

قال الفتى : فإنَّ عملك هذا لا يشدُّ من نفوس رجالنا ، ولا بدَّ أنَّ أولئك سينتظرونكم ، ويعدُّون لكم ، فإذا لم تناجزوهم[٢] في بلدهم عدُّوها عليكم هزيمةً من الهزائم ، وكأنَّهم ضربوكم بلا ضربٍ ! .

قال الجمل : هم لا يعرفون معنى الضَّرب بلا ضرب ؛ لأنَّهم رجالٌ ، والَّذي يضرب بلا ضرب لا يكون رجلاً . . . والسَّلام عليكم ! ثمَّ انطلق ، فلمَّا أبعد ؛ قال الشَّابُّ : لقد بدأت الحرب ، ولا بدَّ لي أن أحطِّمَ هذا الفلاح اللَّعين ، ولقد عرفت الآن من وجهه أنَّ عينَه عليَّ ، ولست أشكُّ في : أنَّ بنت عمِّه لا تمتنع بقوَّتها ، بل بقوَّته ، ولولا معرفتي : أنَّه من انحطاط الغريزة كالوحش في الدِّفاع عن أنثاه لَـ . . .

قال (إبليس) : لقد تأمَّلت القصَّة ، فرأيت : أنَّه لا سبيل لك إلى الفتاة ، وهي بعدُ فتاةٌ ، فإذا هو وصل إلى امرأته ؛ قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطَّريق إليها . . . وستبلو هي من غلظته ، وخشونة طبعه ما يسهِّل لك أن تُعلمها قيمة ظرفك ، ورقَّتك ، وستجد من سوء معاملته ، وقبح تسلُّطِه ما يفتح قلبها لمن يأتيها من قِبل الرِّفق ، واللِّين ، وستصيب عنده من ضيق المعيشة ، وقلَّتها ، ويبْسها

(١) « الحطمة » : الكثيرةُ التحطيم ؛ أي : التَّكسير .

(٢) « تناجزوهم » : تقاتلوهم ، وتُنازلوهم .

ما يُفهمها معنى ذلك العيش الحلو الخَضِر ؛ الَّذي تعرضه عليها ، ثمَّ إنَّه لا بدَّ مبتليها بغيرته العمياء بعد ما عرف من حبِّك إيَّاها ، والغيرة منك هي توجدك بينهما دائماً وتنبِّه المرأة إليك كلَّما كرهتْ من رجلها شيئاً لا ترضاه .

ولم تكن إلا مدَّةً يسيرةً حتَّى أهديت المرأة إلى زوجها ، وإنَّما تعجَّل الزِّفاف ليتأتَّى له أن ينصب يده القويَّة حجاباً بينها وبين هذا المفتون ، وليكتسب من القانون حقّاً لم يكن له من قبل ؛ إذا هو مدَّ هذه اليد ، وعصر في قبضتها تلك الرَّقبة ؛ التي تتطلَّع إلى امرأته ؛ ورأى الشَّابُّ : أنَّ هذه الحال لا تعتدل به ، وبخصمه معاً ، وكانت الغيرة تأكل من قلبه أكلاً ، وكان يعرض للمرأة كلَّما خرجت بمكتلها[1] إلى السُّوق أو بجرَّتها إلى الماء ؛ لأنَّه حينئذٍ يكون في الطَّريق ؛ الَّذي لا يملكه أحدٌ . . . فكانت إذا رأته لم تزد على ما يكون منها إذا هي أبصرت حماراً يمدُّ عينه إليها ! فعمد إلى امرأةٍ مقيِّنةٍ[2] تزفُّ العرائس وهي الَّتي زفَّت (خضراء) فأكرمها ، وأتحفها ، وسألها أن تسعفه ببعض ما تحتال به ، وأن تكون سبيله إلى المرأة ؛ وتحمَّل عليها (بإبليسه) حتَّى استوثق منها ، فكانت تتحدَّث عنه أمام (خضراء) ؛ تستجرُّ بذلك أن تلفتها إلى نعمته ، وجماله ، ولكنَّ المرأة أغلظت لها ، وسبَّتْها ، وحذَّرتْها أن تعود إلى مثل كلامها ، وقالت لها آخر ما قالت : واعلمي : أنَّني لو دُفعت إلى طريقين ، وكان لا بدَّ من أحدهما ثمَّ كان أحدهما حصاهُ الدَّنانير ، وهو طريق العار ، والآخر حصاه الجمر ويفضي إلى الشَّرف ، إذاً لتنزَّهتُ أن أدنِّس نعلي بالذَّهب ، ولنثرتُ لحم قدميَّ على الجمر نثراً .

والحبُّ لا يبقى حبّاً أبداً ، فإمَّا فاز ، فبرد ، ورجع سلواً ، وإمَّا خاب ، فاضطرم وتحوَّل إلى حقدٍ ، ونقمةٍ ، وكذلك انفجر الشَّابُّ غيظاً ، ووجد[3] على الخيبة موجدةً شديدةً ، وأخذ يدير رأيه ، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرَّجل الشَّهم بشهامته ؛ والمرأة العفيفة بعفَّتها ؛ فواطأ إبليسَه على أن يدفع إلى تلك المقيِّنة منديلاً من الحرير عقد طرفه على دينارٍ من الذَّهب ، تلقيه في صندوق (خضراء)

---

(١) هو ما يُسمَّى : الغلق . (ع) .

قلت : المكتل : وعاءٌ من ورق النخل يحمل فيه التمر ، وغيره .

(٢) « مقينة » : مُزَيِّنة .

(٣) « وجد » : وجد عليه موجدةً : غضب عليه .

وتدسُّه في طيٍّ من أطواء ثيابها ، فذهبت المرأة ، وما زالت بخضراء تستصلحها ، وتعتذر إليها حتى استلَّت ضغينة قلبها ، ثمَّ سألتها أن تأتيها (بالعيش والملح) لتصيبَ كلتاهما منه ، وتتحرَّم بحرمته ؛ فلمَّا نهضت تأتيها أسرعت الخبيثة إلى الصُّندوق ، فدسَّت المنديل في أبعد مواضعه ، وأخفاها ، وكان مندًّى بالعطر ، لينمَّ على نفسه ؛ إذا لم ينمَّ أحدٌ عليه ؛ ثمَّ رجعت بما فعلت إلى الشَّابِّ ، فأطلق خادمه يهمس لبعض أصدقاء الجمل : أنَّه رأى اليوم في يد (خضراء) ديناراً ذهباً على ندرة الذَّهب ، وعزَّته ؛ فجعل هذا الدِّينار يطير من نفسٍ إلى نفسٍ بقوَّة الذَّهبِ الَّذي فيه ، والحبِّ الَّذي أعطاه ، والجمال الذي أخذه ، ثمَّ انتهى إلى الجمل ، فكأنَّما حمله ، وطار به إلى داره كالمجنون وقد حميَ دمُه الحرّ ، وجاش جأشه العنيف ولم تكن امرأته في الدار ، فنثر ما في الصُّندوق ، وما كادت تفغمه رائحة العطر حتَّى نفخ الشَّيطان بها نفخة الغضب الكافر ، ثمَّ عثر على المنديل ، ورأى بصيص الدِّينار ، فدارت به الأرض ، وأيقن أنَّ العارَ قد طرق بابه ، وأنَّ الباب قد فتح له ، ثم ردَّ نفسه على مكروهها ، وردَّ معها كلَّ شيءٍ إلى موضعه ، وتلفَّف[1] رأيه على جريمتين ، وخرج ، وروحه تصرخ من ضربةٍ بمنديلٍ ، وهو الذي كانت تتهاوى عليه الضَّربات القاتلة تهشم منه ، ولا يتأوَّه !

وذكر أنَّ (حماته) أثنت من عهدٍ قريبٍ على ابن العمدة ، ووصفته بالرِّقَّة ، والغنى ، فوجَّه إليها أن تأتي فتبيتَ عند امرأته ؛ لأنَّه على سفرٍ ، وكان كالأعمى في ضلالته : لا يرى الأشياء إلا كما يتخيَّلها في نفسه دون ما هي في نفسها ، فسألته زوجته : أين أزمعت وما تبغي من سفرك ، وكم تلبث عنَّا ؟ فكأنه سمعها تقول : اِرحلْ إلى مكانٍ بعيدٍ ، وغِبْ عنَّا زمناً طويلاً ، فَبِنا إلى غيابك حاجةٌ شديدةٌ ! وكاد يبطش بها ، ولكنَّه كاتم صدره اللَّوعة ، وذكر اسم جهةٍ بعيدةٍ ، ومضى ، والانكسار يُعرف فيه !

* * *

فزع النَّاس بعد أيَّامٍ في جوف اللَّيل ، فإذا بيت الجمل يحترق من أرضه وسمائه ، واقتحموه فإذا المرأة وأمها فحمتان ، وانطلقت أشرار الألسنة ، وقُبض على الرَّجل في بلد أخرى ، وتولَّى ابن العمدة توجيه البيِّنة عليه ، وشهد الشُّهود

(١) « تلفَّف » : اجتمع .

على الدِّينار ، وشهد الدِّينار على النَّار ، وأنكر « الجمل » ولم يقصر في إقامة الحجَّة ، ودافع عن امرأته ، وبالغ في أمانتها ، وعفَّتها ، وشهد : أنَّه لا يعلم عليها من سوء ، وأنَّها أطهر النِّساء ، وأبرُّهنَّ ، ثمَّ كان الحكم أن قضي عليه بالموت شنقاً !

* * *

فلمَّا كان يوم إنفاذ الحكم سُئل الرَّجل : هل من شيءٍ تريدُه ؟ فطلب دخينةً[1] فقدَّمها له قيِّم السِّجن ، فأشعلها ، ونفخ من دخانها نفخةً ، ثمَّ أخذ يتكلَّم وعمرُه يفنى مع الدَّخينة نفساً في نفس ، وعاد هذا الدُّخان المتطاير كأنَّه سحابٌ يسبِّح فيه الوحي بين حدود الدُّنيا ، وحدود الآخرة ؛ قال المسكين : لم أتعلَّم ، ولو تعلَّمت ما وقفت هنا ؛ ولكن ربَّما كنت خرجت نذلاً كبعض المتعلِّمين الذين يعيشون أشرافاً ، وفيهم أرواحُ القتلة ، واللُّصوص ! .

لم أقرَّ لأحدٍ بجريمتي خشيةَ أن تذكر كلمة العار مع اسمي ، وآثرت أن أموت بالشَّنق على أن أحيا ، ويموت اسمي بالعار ! .

ولكنِّي سأعترف الآن أمامكم ، وأنتم السَّاعة على قبري ، فكونوا كالملائكة لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحدَه .

أعترف أنِّي قتلت زوجتي وأمَّها ؛ وقد تقولون : إنَّه ليس من عمل الرَّجل أن يقتل امرأةً فضلاً عن اثنتين ؛ إنَّني سأُشنق ، أمَّا النِّساء فلا يشنقن ، وإنَّما يرسلن الرِّجال إلى المشنقة . . لم أرَ أبي ، إذ تركني طفلاً ، ولكن يقال : إنَّه كان رجلاً ، فأنا رجلٌ ، وابن رجلٍ ، ولم يذلَّني رجلٌ قطُّ ، ولكن لو خلق الله قوَّةَ مئة جبَّارٍ في جسم رجلٍ واحدٍ ؛ لأذلَّته امرأة ! .

إنَّه ليس من شيمة الرَّجل أن يقتل النِّساء ، ولكنَّ المرأة تذلُّ الرَّجل ذُلاً يهون عليه قتل نفسه ، فكيف لا يهون عليه قتلها ؟ .

علِّموا المتعلِّمين ؛ ليصيروا في الشَّرف ، والأمانة ، والعفَّة كرجلٍ جاهلٍ مثلي : لا يرى للحياة كلِّها قيمةً ؛ إذا كان فيه معنى العار ، ويقدِّم عنقه للمشنقة حتَّى لا ينكِّس رأسه للذُّلِّ ! .

---

(١) وضعناها للسِّيجارة ، وهي أليقُ الألفاظ بها . (ع) .

أصلحوا القانون الَّذي يحكم بالموت شنقاً ، ويزهق الأرواح الكبيرة ، في حين تغلبه الأرواح الصَّغيرة بحيلها الدَّنيئة ! .

ومع سألقى الله وهو يعلم سريرتي إنْ كنتُ بريئاً ، أو مجرماً ! .

قيِّم السِّجن : ستلقاه طاهراً .

السَّجين : أرأيتم منِّي خُلُقَ سوء ؟ أتعتقد عليَّ ذنباً مدَّة سجني ؟ .

القَيِّم : كلُّنا راضون عنك .

السَّجين : هذا مثلٌ من أخلاقي ، والحمد لله على أنَّ آخر كلمةٍ أسمعها من إنسانٍ على الأرض كلمة الرِّضا .

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله !

* * *

نظرتْ ريشةٌ من زغب العصفور إلى النُّجوم ، فحسبتها ريشاً متناثراً ، فامتطت العاصفةَ ، وقالت : إلى السَّماء ! ودارت بها العاصفة ما شاء الله أن تدور ، ثمَّ رمت بها حيث وقعت لم تبالِ في موضع نفعٍ ، أو ضرٍّ ، فأقبلت الرِّيشة تتسخَّط ، وتزعم أنَّها فوضى ثائرة لا حكمة في خلقها ، وأنَّ الرِّياح بعثرةٌ في نظام العالم . . . وكان إلى جانبها شجرةٌ تهتزُّ ، ولا تطير . . . فلمَّا وعت مقالتها ؛ أقبلت عليها ، فقالت : أيَّتها الرِّيشة ! **إنَّ الرِّياحَ لا تكون بعثرةً في نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشاً كلُّه !** .

* * *